حقبة من العمر جميلة

د. إبراهيم بن عبد العزيز الشدي

كانت المرة الأولى التي لقيت فيها أخي وصديقي العزيز الأستاذ الدكتور محمد بن أحمد الرشيد في مدينة هيوستن بالولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٧٩م، وذلك في مبنى الملحقية السعودية هناك في بداية دراستي في جامعة أكلاهوما. وقد لفت نظري في ذلك اليوم حماس الدكتور الرشيد في النقاش مع مجموعة من الطلبة، يبدو أنهم مبتعثون من جامعة الملك سعود، وكان وقتها عميداً لكلية التربية فيها.

وبعد عامين من ذلك اليوم كنت قد عدت من الدراسة، وكلفت بالعمل في جهاز وزارة المعارف في اللجنة الوطنية للتربية والثقافة والعلوم، وهي الإدارة المعنية بعلاقة المملكة العربية السعودية مع المنظمات التربوية الدولية والإقليمية، ومن هذه المنظمات مكتب التربية العربي لدول الخليج، الذي أصبح الدكتور الرشيد مديراً عاماً له، وبحكم عملي في اللجنة الوطنية كنت أحضر بعض اجتماعات المكتب، ولا سيما اجتماعات المجلس التنفيذي بصحبة الشيخ إبراهيم الحجي -رحمه الله- وكيل وزارة المعارف للشؤون الثقافية آنذاك، الذي كان ممثلاً للمملكة في المجلس التنفيذي لمكتب التربية العربي لدول الخليج.

كانت اجتماعات المجلس التنفيذي ميدان حوار ونقاش في العديد من الموضوعات، التي كان يطرحها على المجلس الدكتور محمد الرشيد بصفته المدير العام للمكتب، فقد كان طموحه كبيراً في أن يكون لمكتب التربية العربي لدول الخليج نشاطٌ كبيرٌ في مجال التربية والتعليم في دول الخليج، وكان من ممثلي الدول الأعضاء في المجلس من يجد صعوبة في تنفيذ هذه الطموحات، فيكثر من التساؤلات التي ينبري لها المدير بالشرح والتفصيل، سعياً إلى إقناع أعضاء المجلس بهذا المشروع أو ذاك. ولا زلت أذكر ما كان

عضو مجلس الشورى، وكيل وزارة التربية والتعليم للشؤون الثقافية والعلاقات الخارجية سابقاً.

يقولـه الدكتور الرشيد أحياناً، وهو يعرض بعض الموضوعات: «إن إدارة المكتب عندما تقتـرح مشروعاً أو برنامجاً فإنما تضيف بهذا عبئـاً على عاتقها، وكلما قلَّت أوجه نشاط المكتـب قلَّ الجهد والتعب، ولكننا لا نقبل أن نركن إلى الراحة، وهناك الكثير مما ينبغي أن نقـوم به مـن برامج ومشروعات في ميـدان التربية والتعليم والثقافـة والعلوم»، وكان الميدانـان الأخيران ضمن عمل المكتب قبل أن يقتصـر على النشاط التربوي والتعليمي في السنوات الأخيرة.

كانت اجتماعات المجلس التنفيذي لمكتب التربية العربي لدول الخليج تعقد كل ستة أشهر في مقر المكتب بالرياض غالباً أو في إحدى المدن الأخرى في المملكة أو في الدول الأعضـاء في المكتب، وكانت هـذه الاجتماعات – بجانب طابعهـا الرسمي – من أحلى اللقـاءات التي تجمع بيـن المتعة والفائدة، لأنه يصاحبها لقـاءات شخصية بين أعضاء المجلس التنفيذي والعاملين في المكتب، كما يصاحبها نشاط اجتماعي وترفيهي تنظمه غالباً وزارة التربية والتعليم في البلد الذي يستضيف اللقاء.

كانـت سنوات إدارة الدكتور محمد الرشيد لمكتب التربية العربي لدول الخليج زهرة عمـر المكتب، لأنها امتلأت بأوجه النشاط المتعدد، ومنها: المؤتمرات التي كان ينظمها المكتـب حول موضوع معين كمؤتمـر: (ماذا يريد التربويون مـن الإعلاميين؟) أو ورش العمل التي تتنوع بتنوع موضوعاتها والمشاركين فيها، وكثيراً ما تعقد هذه الورش للعاملين فـي القطاعات المتماثلة فـي وزارات التربية والتعليم بالـدول الأعضاء في المكتب، مما يتيح فرصة لتبادل الخبرات بين المشاركين، وكانت هناك دورات تدريبية قصيرة لبعض الموضوعـات التربويـة والثقافية، ولا ننسـى المطبوعات القيمة التـي أصدرها المكتب، سواء في ذلك ما يتصل بمتابعة التطورات التربوية والتعليمية تأليفاً أو ترجمة، مثل كتاب (أمـة في خطر) حول التقرير الذي صدر عن التعليم في الولايات المتحدة الأمريكية، أو تلـك الكتب القيمة في التراث الإسلامي التي طبعـت لأول مرة وخرجت إلى النور بعد أن كانت مخطوطة، وهي من أمهات الكتب الإسلامية.

وقـد تطـورت علاقتي الرسمية والشخصيـة مع الدكتور محمـد الرشيد عندما عين وزيـراً للمعـارف عام ١٤١٦هـ وكنت وقتها وكيـلاً مساعداً في قطـاع الثقافة والعلاقات الخارجية، وقد كانت السنوات العشر التي قضاها وزيراً تجربة عامرة بكل أنواع النشاط الرسمي أو الاجتماعي.

ففـي المجال الرسمي تبلور العمـل الجماعي بين قطاعات وزارة التربية والتعليم بما في ذلك إدارات التربية والتعليم، وذلك من خلال اللقاءات المتعددة على مستويات عدة ودورات انعقـاد متفاوتة، الأعلى والأهم من هذه الاجتماعات كان الاجتماع الأسبوعي كل أربعـاء، وكان الاجتماع يبدأ صباحاً الساعة الثامنة تماماً، وأقول تماماً لأنني لا أتذكر أن الاجتمـاع قد تأخـر عن هذا الموعد في كل الاجتماعات التي عقـدت عندما يكون الوزير حاضراً في مدينة الرياض طيلة السنوات العشر.

وبرغـم جديـة الاجتمـاع وعمـق الموضوعات التـي يطرحهـا إلا أن هـذا الاجتماع والاجتماعـات الأخـرى كانت لا تخلو مـن المتعة، التي يضفيها الدكتـور الرشيد أو شجع عليها، وكانت تجد تجاوباً من بعض الزملاء الذين يتحلون بروح الدعابة، ولا سيما زميلنا الدكتور إبراهيم الدريس (رحمه الله)، الذي كان يجمع بين الفكر والفكاهة.

ولـدى الدكتور محمد الرشيد قدرة لطيفة على ربـط الموضوع الذي يتحدث عنه مع مـا قد يلاحظه بين المجتمعين، كأن يدخل أحد الزمـلاء بعد الثامنة وقد بدأ الاجتماع، فيشيـر الرشيـد في ثنايا حديثـه دون أن يقطعه إلى أن الزميل فلان قـد دخل الآن، وقد يلتمـس له عذراً غيـر واقعي كمداعبة لطيفة، وكانـت مثل هذه الإشـارات دروساً تعلمها المشاركون في أهمية الالتزام بالوقت، ولا سيما عندما ينبه الوزير إلى أن منسوبي وزارة التربيـة والتعليم هـم أحرى الناس بالالتـزام بالوقت، لأنهم قـدوة لغيرهم من المربين والمربيات.

وفي المجال الرسمـي أيضاً انتشرت روح المبادرة والابتكار وتقديم الاقتراحات بين الزملاء في قطاعات الوزارة المختلفة كل في اختصاصه، نظراً لجو العمل الإبداعي الذي

نشـره الدكتور الرشيد بين العاملين فـي وزارة التربية والتعليم، وذلك من خلال ترحيبه بالأفكار والمقترحات التي يقدمها الزملاء، سواء في ذلك قطاع الجهاز المركزي للوزارة أو مـن الزملاء مديري التعليم، أو تلك الاقتراحـات التي ترد من المعلمين أو المشرفين التربويـن برسائل يبعثون بها أو يطرحونها خلال اجتماعات الوزير معهم في مناطقهم، وقد سمع معظم الزملاء من الوزير عبارته المشهورة التي كان يجيب بها من استأذنه في تقديم اقتراح أو مشروع جديد: «انطلقوا مستعينين بالله، فحدودكم السماء».

أمـا فـي العمل الخارجـي فينطلق الدكتور الرشيـد في حرصه عليه مـن اقتناعه أن القضايا الإنسانية – وخاصة التربوية والتعليمية منها – متشابهة في معظم دول العالم، ومن الحكمة أن نستفيد ممن سبقونا وأن نعرف ما أنجزوه من برامج تنموية في مختلف المجـالات، ولذلك كان يحرص عنـد قدوم الوفود الرسمية إلـى المملكة أن تكون برامج زياراتهـم حافلة باللقاءات والزيـارات للمسؤولين والأماكن فيها، التي تهم الوفد الزائر، ويتحقق من خلالهـا التعريف بإنجازات المملكة التنموية بشكل عام والتربوية والتعليمية فيها بشكل خاص.

وعندمـا كان يُدعـى الدكتور الرشيد لزيارة دولة أخـرى أو المشاركة في مؤتمر أو لقاء خارج المملكة، تجد الحرص نفسه على الاستفادة من هذه المشاركات الخارجية، من خلال الإعداد المبكر للزيارة، وتوفير المعلومات اللازمة، وتشكيل الوفد المناسب، وعقد اللقاءات السابقـة للزيارة، وفي المؤتمـرات الدولية كالمؤتمر العام لليونسكـو، أو اللقاءات الإقليمية العربيـة أو لقاءات دول الخليج كان الدكتور الرشيد يدير الحوارات ويقدم الاقتراحات، مما يجعل وفود المملكة من أكثر الوفود تأثيراً فيما تنتهي إليه كل الاجتماعات من نتائج.

وقـد تزامـن تكليف الدكتور الرشيـد بالوزارة عام ١٤١٦هـ مع صـدور الموافقة على تقديـم ترشيح المملكة العربية السعودية لعضوية المجلـس التنفيذي لمنظمة اليونسكو، وكان هنـاك أكثـر من دولة من الـدول الأعضاء في المنظمة – مـن بينها دول عربية – تقدمـوا للترشيح لعضوية المجلس، وقد استطاعت المملكة الحصول على أعلى الأصوات

خـلال الانتخابات التي جرت في المؤتمر العـام لليونسكو في باريس في شهر نوفمبر من عام ١٩٩٧م.

وقـد حرص الدكتور الرشيد خـلال تمثيله للمملكـة في عضوية المجلس التنفيذي لليونسكـو لمدة أربع سنوات أن يعزز من استفادة المملكة من عضويتها في هذه المنظمة الدوليـة، وكان من بين المحطـات الأبرز خلال تلك العضوية سعيه إلـى أن تتولى كفاءة سعوديـة منصـب المدير العام للمنظمـة، وكان مديرها العام آنـذاك الدكتور فريدريكو مايـور الإسباني فـي المرحلة الأخيرة لإدارتـه، وقد أعلنت المنظمة عـن شغور الوظيفة للدول الأعضاء.

وفـي إحـدى دورات المجلس التنفيذي فـي باريس، كنت أتناول الغـداء معه في أحد المطاعم دار الحديث حول منصب المدير العام للمنظمة، وتساءل الدكتور محمد: لماذا لا يكون للمملكة العربية السعودية مرشح؟! فأيدته في هذه الفكرة، لكن من ترى أن يكون المرشـح، وخـلال استعراضنا لبعض الكفـاءات السعودية كان من بينهـا الدكتور غازي القصيبـي -رحمه الله- سفير المملكة العربية السعودية لـدى المملكة المتحدة آنذاك، وكعـادة الدكتور الرشيد في حيوية التفكير وسرعـة الإجراء، فقد اتصل هاتفياً بالدكتور القصيبـي في جلسة الغداء نفسها، وكانت الفكـرة فيما يبدو مفاجئة للدكتور القصيبي، لكنـه لم يرفضها في ضـوء حديث الدكتور الرشيد عن أهميتهـا للمملكة عامة وللمرشح شخصيـاً، لأنها وظيفة دولية مرموقة لمنظمـة مهمة تعمل في مجالات حيوية، يحسن أن تستفيد منها المملكة، وأن تسهم فيها ضمن دول العالم.

وحتـى يستطيع الدكتور القصيبي أن يعطي رأيه طلـب معلومات ووثائق حول منظمة اليونسكو ليدرسها ثم يقرر، وكما حدَّث الدكتور القصيبي بالهاتف حدَّث الدكتور الرشيد بعده مباشرة الدكتور عبد العزيز بن سلمة مندوب المملكة الدائم لدى اليونسكو آنذاك، وطلـب منه توفيـر المعلومات والوثائق اللازمـة حول منظمة اليونسكـو ومنصب المدير العـام وإجـراءات الترشيح، ثـم بعثها لمعالي الدكتـور القصيبي بأسرع مـا يمكن، وكما

يعـرف الجميع فقد تقدمـت المملكة العربيـة السعودية بمرشح لمنصـب المدير العام، وجـرت منافسة شريفة وقوية مع عدد من المرشحين لا سيما مرشح اليابان الذي تسهم بلاده بأكبر حصة في ميزانية المنظمة.

وبرغـم أن مرشـح المملكة لم يفز بالمنصب، إلا أن المملكـة قد استفادت من ذلك الترشيـح وما صاحبه من حملـة دبلوماسية وإعلامية عرفت بالمملكة وكفاءاتها وقدرتها على المنافسة للمناصب الدولية.

ولعـل مـن الذكريات البارزة فـي حملة الدعـم لمرشح المملكة لمنصـب مدير عام اليونسكـو الجهد الذي بذله الدكتور الرشيد للحصـول على موافقة وتأييد الدول العربية لمرشح المملكة، وكان هناك مؤتمر عام لوزراء التربية والتعليم في الدول العربية يرأسه وزيـر التعليـم العالي والبحث العلمي في جمهورية مصـر العربية ولديها مرشح لمنصب مديـر عام اليونسكو، كما كان هناك عدد من الوزراء المشاركين غير متحمسين لمرشح المملكـة العربية السعودية، وبرغم كل هذه الظروف الصعبة التي صاحبت ذلك المؤتمر استطاع رئيس وفد المملكة إلى المؤتمر العام أن ينجح في إصدار تأييد من المؤتمر العام لمرشح المملكة باسم الدول العربية كافة.

وهناك جانب آخر فـي زيارات الدكتور الرشيد للخارج وهو الجانب الاجتماعي، فهو مـن أقـرب الناس إلى زملائه في الوفد الذي يرافقه، فالصـلاة جماعة والأكل مع بعض والتشاور مع الجميع في جلسات مستمرة في مقر سكنه الذي يبقى مفتوحاً دائماً.

ومـن الذكريات الاجتماعية البـارزة في سفري مع أخي وصديقـي الدكتور الرشيد، مـا حصل في أثناء مشاركته في واحدة مـن دورات المجلس التنفيذي لمنظمة اليونسكو فـي باريـس، وقد كنت فقط بصحبته في تلك الرحلة مـن الرياض بطائرة خاصة. وعند وصولنـا إلى باريس والاستراحة في غرفنا فـي الفندق، رغب الدكتور الرشيد كعادته في مزاولـة رياضته المفضلة المشي، ولم أبد له رغبـة في مشاركته فبقيت في غرفتي، وفي أثناء غيابه تلقيت مكالمة هاتفية من أحمد الرشيد ابن الدكتور محمد، يخبرني فيها عن

انتقال أم عثمان الرشيد إلى رحمة الله، وهي أخت للدكتور محمد وعزيزة على قلبه، وقد غادر الرياض وهو مشغول الفكر بها.

ونظراً لمعرفتي باهتمام أبي أحمد بأخته ومرضها وحبه لها، فقد تأكد لي أنه سيرحب بأي ترتيب يعيده إلى الرياض للمشاركة في الصلاة على الفقيدة ودفنها وحضور أيام عزائها، ولم تكن الهواتف النقالة آنذاك قد توافرت كما هي الآن، فلم أستطع أن أخبر أبا أحمد في أثناء المشي، وبقيت أفكر في أمرين: كيف أرتب الطريقة المناسبة لإخباره بهذا الخبر المؤلم، ثم ماذا يمكن أن نعمل ليعود إلى الرياض، وبما أن قدومنا كان بطائرة خاصة فقد تذكرت في أثناء حديثي مع طاقم الطائرة إن عودتهم إلى الرياض ستكون في اليوم اللاحق للوصول، إذاً مازالت الطائرة في باريس، فاتصلت بالمندوب الدائم آنذاك الدكتور إبراهيم مناع ليساعدني في الحصول على أرقام مدير عام الخطوط السعودية في باريس، لنطرح الموضوع معه، وأن يعمل معي على إقناع طاقم الطائرة بالعودة للرياض هذه الليلة (أي مساء يوم قدومنا).

في هذه الأثناء عاد أبو أحمد من مشوار المشي، وبدأت بإخباره بهدوء أن ابنه أحمد قد اتصل من الرياض، فأدرك بانشغاله على أخته المريضة أن الاتصال حولها، فأكدت له ذلك، ثم تساءل: هل توفيت؟ فأومأت له موافقاً، فحمد الله ودعا لها بالمغفرة، وأبدى تقديراً كبيراً لمحاولاتي عودته للرياض، وشدد على أهمية ذلك والحرص على تحقيقه، ولحسن نية الدكتور محمد وحرصه على القيام بالواجب أقنعنا طاقم الطائرة الذي كان يرغب في قضاء تلك الليلة في باريس، وبدؤوا مع السلطات الفرنسية الإعداد للإقلاع بسرعة متناهية قبل الحادية عشرة مساءً، وهو الوقت المحدد هناك لإقلاع آخر طائرة كل يوم، وغادر أبو أحمد باريس ووصل الرياض فجراً، وتمكن بحمد الله من الصلاة على أخته ظهر اليوم اللاحق، وحضر كل أيام العزاء، ثم عاد ليكمل واجبه في تمثيل المملكة في المجلس التنفيذي لليونسكو، الذي تمتد اجتماعاته عادة أسبوعين.

ويشاء الله أن أكون ضمن وفد المملكة إلى المؤتمر العام لمكتب التربية العربي لدول الخليج الذي عقد في الكويت في شهر ذي الحجة من عام ١٤٢٥هـ، وكان الوفد برئاسة معالي الوزير، وكل وفود الدول الأخرى من دول الخليج برئاسة وزراء التربية والتعليم فيها، وفي مساء اليوم الأول للمؤتمر كنت معه في مشوار المشي اليومي على كورنيش مدينة الكويت، وفي نهاية المشي ونحن على مقربة من الفندق تلقى مكالمة على هاتفه الجوال، وابتعدت عنه قليلاً كالعادة ليكمل حديثه حتى وصلت إلى الفندق، وخلال دقائق وصل أبو أحمد إلينا، وكان في بهو الفندق عدد من موظفي مكتب التربية العربي لدول الخليج وبعض أعضاء الوفود، فركبنا المصعد وذهبت إلى غرفتي وذهب إلى جناحه، دون أن ألحظ على ملامح وجهه أي شيء.

وبعد أن غيَّرت ملابس المشي ذهبت إلى جناحه كالعادة، حيث يستقبل زملاءه أعضاء الوفد وغيرهم من الزوار، وما إن دخلت وسلمت، وكان لديه مدير عام مكتبه الأخ/ أحمد الأحمد، وسفير المملكة لدى الكويت آنذاك الأستاذ أحمد اليحيى، حتى بادرني بكل هدوء: أبا فيصل لقد تركت وزارة التربية والتعليم، ولم أستوعب لأول مرة ما قال، ولما رأى ملامح الاستغراب على وجهي كرر مقولته، وزاد أن المكالمة التي تلقاها في آخر مشوار المشي كانت تخبره بالموافقة على طلبه أن يعفى من منصبه وزيراً للتربية والتعليم، وبرغم أنه كان في قمة عطائه، وكان المحرك الرئيس لكل فعاليات المؤتمر إلا أنه كان في منتهى الهدوء والاطمئنان، وقد كلف منذ تلك اللحظة بعض الزملاء لرئاسة الوفد التزاماً منه بالأمر الملكي الذي صدر بهذا الشأن، وطلب من مدير عام مكتبه الطائرة للمغادرة إلى الرياض.

لقد كان موقفاً صعباً على الكثير، لكنه كان موقفاً سهلاً على أبي أحمد. وأكمل ليلته في الكويت وحضر العشاء الرسمي للوفود، ولم يعرف أحد بالموضوع طيلة العشاء حتى لا يربك الترتيبات، وفي نهاية المناسبة وعلى الطاولة التي كان يجلس عليها مع رؤساء

الوفـود، طلـب الحديث والإنصـات من الجميع وأخبرهـم بالموضوع، مضيفـاً أن انتهاء زمالة العمل ستقوي علاقة الصداقة التي ستدوم وتتطور مع كل من يعرفه من الحضور.

ومـا زلت أذكر ونحن في الطائرة صبيحة اليوم اللاحق متجهين إلى الرياض عندما أخـرج أبو أحمد ورقة من جيبه مكتوباً فيها قائمة من الموضوعات التي كثيراً ما يسجلها ليتابعهـا مـع قطاعات الوزارة أو مع الجهات الأخـرى، وكان من بينها نقاط تخص بعض زملائـه منسوبي الوزارة كالترقيات وغيرها، فقد كان العمل وزملاء العمل شغله الشاغل فـي كل ساعـات يومه، ولعل الله قـد أراد به خيراً ليستريح بعد عشـر سنوات من العطاء المتواصل، والكد والكدح في خدمة رسالة التربية والتعليم.

وبعـد تـرك الدكتور محمد الرشيد للـوزارة زادت علاقتي به رسوخـاً، وزادت متعتي بصحبتـه، فـلا يكاد يمر يـوم إلا ونلتقي لا سيما في عادة المشـي الصحية الشائعة التي اكتسبناها من أبي أحمد بجانب اللقاءات المفيدة والممتعة التي لا تنقطع معه، سواء في جلسته الأسبوعية مساء كل سبت، أو في لقاءات الأخوة والمحبة في منازلنا أو خارجها.

رحلـة حقبـة من العمر جميلة سعدت بهـا ومازلت مع أخي وصديقـي معالي الأستاذ الدكتـور محمد بن أحمد الرشيد، متعه الله بالصحة والعافية، وأدام المحبة بيننا، وبين كل الأهل والأصدقاء، لأنها زاد الحياة الأطيب بعد رضا الله سبحانه، وما عدا ذلك غثاء لا يؤثر نقصانه أو زيادته.